الشعر العربي الجاهلي
في ديار الشام قبل الفتح العربي الإسلامي

كتبنا في تحديد إقليم الشام: أنه ما كان في شمال الكعبة من الجزيرة العربية.

وقال ياقوت الحموي في تحديد الشام: «وأما حدّها، فمن الفرات إلى العريش المتاخم للديار المصرية»، وقال: «وطولها من الفرات إلى العريش نحو شهر»، وهذا يعني أن ما كان غربي نهر الفرات من العراق داخل في إقليم الشام، ولعلّ اجتزاء ما كان غربي النهر من الشام، كان اجتزاء سياسياً، منذ الفتنة بين عليّ ومعاوية، ومن بعدها فتنة ابن الزبير، فما كان موالياً لعلي وابن الزبير، فهو «العراق»، وما كان موالياً للأمويين، فهو الشام..

وأعداء العروبة يزعمون: أن العرب في بلاد الشام، جاؤوا بعد الفتح العربيّ الإسلاميّ.. وأثبتنا في هذا الكتاب أن عروبة بلاد الشام كانت منذ الأزل، وتوالت على بلاد الشام طبقات من الجنس العربي بشعوبه وطبقاته المختلفة في الاسم، المتفقة في الجنس والثقافة. ونملك شواهد أكيدة على أن صفة العروبة كانت تنطبق على بلاد الشام قبل الإسلام بمئات القرون، بالدرجة التي كانت عليها في الحجاز ونجد.. وشواهدنا على ذلك نأخذها من تراجم الشعراء الذين عاشوا في الجاهلية، ومن قصائد الشعر التي كان موطنها بلاد الشام، وأُنشدَتْ أمام حشد من الناس كانوا من أهل الشام.. ونقصد الشعراء الذين وفدوا عَلى ملوك الغساسنة وعلى ملوك المناذرة: ...، وشعراء آخرين لم يفدوا على هؤلاء الملوك، بل إنَّ تاريخ الشعر العربي سجل وجود شعر عربي أقدم من ملوك الغساسنة والمناذرة في تلك الديار.

من ذلك ما يُروى من الشعر لجذيمة الوضاح، أو جذيمة الأبرش، أو الأبرص، وهو ثالث ملوك الدولة التنوخية المنسوبة إلى قبيلة تنوخ، أرخوا وفاته نحو (268م).

.. ونقل البغدادي في الخزانة (جـ11/ 404) قطعة شعرية منسوبة إلى جذيمة الأبرش، وقال في ترجمته: ولجذيمة في «كتاب الأزد» أشعار.

واستشهد النحاة بأحد أبيات جذيمة، ومنهم سيبويه في كتابه (جـ2/ 153)؛ مما يدلُّ على الثقة بهذا الشعر نصاً ونسبة، وهو قوله:

رُبمـــا أوفيـــتُ في عَلَـــمٍ ترفَعَـــنْ ثوبـــي شـــمالاتُ

يقول: ربما أشرفتُ في رأس جبل ترفع ثوبي ريح الشمال. وهو شاهد على توكيد الفعل «ترفَعَنْ» بالنون ضرورة؛ لأن موجبات التوكيد غير موجودة.

والزبّاء ـ صاحبة تدمر، وملكة الشام والجزيرة ـ عاصرت جذيمة الوضاح ـ، وتؤرخ وفاتها عام (285م)، ولها مع جذيمة وابن أخته قصة.. ونسب إليها النحويون رجزاً تقول فيه:

مـــا للجِمـــالِ مشـــيُها وئيـــدا أجنـــدلاً يحملـــن أم حديـــداً

[المغني لابن هشام الشاهد 986]. واستشهد به الكوفيون على جواز تقديم الفاعل (مشيُها) على عامله «وئيداً».

ومما يدلُّ على وجود الشعر والشعراء في العصر الجاهلي ـ في بلاد الشام، التي تشمل ما يسمى العراق حتى حدود الفرات ـ قول ابن سلام الجمحي: «وقد كان عند النعمان بن المنذر من الشعر ديوان فيه أشعار الفحول، وما مُدح هو وأهل بيته به، صار ذلك إلى بني مروان، أو صار منه» [طبقات الشعراء / 25].

وفي ترجمة حسان بن ثابت أنه قال: قدمتُ على عمرو بن الحارث (أحد ملوك الغساسنة في الشام)[1]، فاعتاص الوصول إليه، فقلت للحاجب بعد مُدّة، إن أذنت لي عليه، وإلا هجوت اليمن كلها، ثم انقلبتُ عنكم، فأذن لي، فدخلت عليه، فوجدت عنده النابغة الذبياني، وهو جالس عن يمينه، وعلقمة بن عَبَدة وهو جالس عن يساره، فقال لي: يا بن الفريعة (كنية حسان)! قد عرفتُ عيصك ونسبك في غسان، فارجع فإني باعث إليك بصلةٍ سنيّة، ولا أحتاج إلى الشعر؛ فإني أخاف عليك هذين السَّبعين: النابغة وعلقمة أن يفضحاك، وفضيحتك فضيحتي.. قال: فأبيتُ، وقلتُ: لا بُدَّ منه، فقال: ذاك إلى عمَّيك، فقلت لهما: بحق الملك إلا

(1) كانت منازل الغساسنة: بلاد حوران، وغوطة دمشق، وشرقي الأردن، وفينيقيا اللبنانية، وفلسطين.

قدَّمتماني عليكما، فقالا: قد فعلنا، فقال عمرو بن الحارث: هات يا بن الفُريعة، فأنشأت:

أسألتَ رسْم الدار أم لم تسأل بين الجوابي فالبُضيع فحومل

وأنشد القصيدة اللامية (ديوان حسان/ 363، البرقوقي).

ولاجتماع الشعراء الثلاثة في قصر الملك أسباب ودواع:

أما النابغة الذبياني، فكان في بلاط النعمان بن المنذر ملك العراق، فغضب عليه، فلجأ إلى عمرو بن الحارث الغساني، ومدحه بقصائد أشهرها القصيدة البائية التي مطلعها:

كِليني لهمّ يا أميمةُ ناصب وليلٍ أقاسيه بطيء الكواكب

ومنها البيت:

ولا عَيْبَ فيهم غير أنَّ سيوفهم بهنَّ فُلولٌ من قراع الكتائب

. . وله في النعمان بن المنذر اللخمي غرر القصائد. . وهو من فحول شعراء الجاهلية، له قصيدة من المعلقات العشر، ولا يأنس بشعره ويألفه إلا مَنْ كان على درجة عالية من الخبرة بفنّ الشعر.

وملوك الغساسنة والمناذرة الذين استمعوا إلى شعره كانوا يمثلون مجتمعاً واسع الانتشار في بلاد الشام؛ مما يدلُّ على عروبة عالية الطبقة في هذه الديار.

وأما علقمة بن عَبَدة الفَحْل، فقد جاء في فكاك أخيه الأسير عند الملك الغساني، ومدحه بقصيدة أولها:

طحا بك قلبٌ في الحِسان طروبُ بُعَيْدَ الشبابِ عَصْرَ حانَ مشيبُ

وهي من مختارات المفضَّل الضبّي في «المفضَّليات».

. . أما حسان بن ثابت، فقد جاء مادحاً وطالباً العطاء، ولم تكن الرحلةَ الأولى إلى الشام، وإنما كانت رحلاته متتابعة؛ بدليل قوله في القصيدة اللامية:

لله درُّ عصابةٍ نادمتُهم يوماً بجلّق في الزمان الأول

وقوله:

فلبثتُ أزماناً طوالاً فيهم ... ثم ادّكرتُ كأنني لم أفْعَلِ

. . وبآية كثرة المعالم الجغرافية الشامية التي يذكرها في شعره، حيث قال:

أسألت رسْم الدار أم لم تسأل ... بين الجوابي، فالبُضَيْع فحومَلِ

. . والجوابي: أراد: جابية الجولان، ولا يجهل أحد مكان «الجولان» بعد سنة (1967).

والبُضيع: بالضاد المعجمة، والصاد المهملة: جبل بالقرب من قرية الصنمين في حوران السورية، وقال:

فالمرج مَرْج الصُفَّرَيْنِ فجاسم ... فديار سَلْمى دُرَّساً لم تُحْلَلِ

. . ومرج الصفر موضع قريب من دمشق، وجاسم: قرية في حوران السورية. وقال في قصيدة أخرى:

انظر خليلي ببطن جلّق هل ... تُبصِرُ دون البلقاء من أحد

من دون بُصرى وخلفها جبل الثلـ ... ـج عليه السحاب كالقِدَد

. . فذكر «جلّق»، و«البلقاء»، و«بصرى»، و«جبل الشيخ»، وكلها معالم شامية من مواطن الغساسنة.

وقال في قصيدة نونيّة، يمدح جبلة بن الأيهم:

لمن الدار أوحشتْ بمعان ... بين أعلى اليرموك فالخمّان

فالقريات من بلاس فداريّا، فسكاءَ فالقصور الدواني

فقفا جاسم فأودية الصُفَّـ ... ـر مغنى قبائل وهجان

ثكلتْ أمهم وقد ثكلتهم ... يوم حلّوا بحارث الجولان

. . وفي هذا الشعر جاءَتِ الأماكن الشامية: معان، اليرموك، الخمّان، بلاس، داريا، سكاء، جاسم، الصُفَّر، وحارث الجولان.

. . ومن الشعراء الذين كانوا يقصدون الشام: الأعشى؛ حيث قال:

وطوّفـــتُ للمـــال آفاقـــه عُمـــانَ فَحمْـــصَ فَـــأُرِي شَـــلَمْ

. . ومن الشعراء الذين اتصلوا بالقسم العراقي من الشام: لقيط بن يعمر الإيادي، صاحب القصيدة العينية التي أرسلها إلى قومه بني إياد، يحذرهم فيها من غزو فارسي وشيك لأرضهم، فأخذه ملك الفرس، وقطع لسانه، ثم قتله، فمات دفاعاً عن أمته، وكانت موتته فيها معنى (الشهادة) لو كان إسلامياً، وتُعدُّ قصيدته إنذاراً دائماً لأمة العرب في كلّ عصر ومصر، حيث تُعدُّ عداوة الفرس للعرب رمزاً لما يكنه العالم من العداوة لأمة العرب في الجاهلية والإسلام، هذا وتمثل قصيدة لقيط (ت 380م) البُعْدَ التاريخي لوجود الشعر العربي الفصيح، واللغة العربية الفصيحة، حيث عاش الشاعر قبل الإسلام بحوالي ثلاث مئة سنة في زمن الملك الفارسي سابور، أو شابور ذي الأكتاف (310 ـ 379م)، وعداء الفرس للعرب قديم، متصل بعداء اليهود للعرب، واشتد أواره زمن وضْع التوراة في بلاط الملك الفارسي قورش الكبير (557 ـ 528 ق . م) . . قال لقيط بن يعمر في قصيدته:

أبلـغ إيـاداً وخلّـلْ فـي سـراتهمُ أني أرى الرأْيَ إنْ لم أُعص قد نَصَعا

يـا لـهف نفسـي إذا كـانَتْ أموركُـمُ شتى وأُحْكِمَ أمـرُ الناس فاجتمعا

فـي كلّ يـوم يسـنون الحـراب لكـم لا يـهجعون إذا مـا غـافلٌ هَجَعـا

مـالي أراكـم نيامـاً فـي بُلهنيـة وقد ترون شهاب الحرب قد سطعا

يـا قـوم لا تـأمنوا إن كنتـمُ غُـيُراً علـى نسـائِكُمُ كسـرى ومـا جَمَعـا

هـو الفنـاء الـذي يجتـثّ أصلَكُـمُ فمـن رأى مثـل ذا رأيـاً ومَـنْ سـمعا

وقلّـدوا أمركـم، للّـه درُّكـمُ رحْبَ الذراع بأمر الحرب مضطلعا

لا مترفـاً إن رخـاء العيش سـاعده ولا إذا عـضّ مكـروه بـه خشـعا

لا يطعـم النـوم إلا رَيْـث يبعثـه هَـمٌّ يكـاد شَـبَاهُ يقصـمُ الضّلعـا

لقـد نخلـتُ لكـمْ رأيـي بـلا دَخَـلَ فاستيقظوا إنَّ خير العلم ما نفعا

. . ومن الشعراء الذين عاشوا في الجزء العراقي من الشام: الشاعر أبو زُبيد الطائي، المنذر بن حرملة، وهو شاعر جاهلي أدرك الإسلام، ولم يسلم، كان يعيش في ديار أخواله بني تغلب.

قال ابن قتيبة: ولم يصف أحد من الشعراء الأسد وصفه. وانظر: (طبقات الشعراء لابن سلام ص 561 ـ محمود شاكر).

وعمرو بن كلثوم التغلبي (ت نحو 584م) سيد تغلب في زمانه ولد في الجزيرة الفراتية في ديار ربيعة. . وهو صاحب المعلقة التي يقول في أولها:

ألا هُبّي بصحنِكِ فاصبحينا ... ولا تبقي خمورَ الأندرينا

أبا هند فلا تعجلْ علينا ... وأنظرْنا نُخبِّرْكَ اليقينا

ملأنا البرّ حتى ضاق عنا ... وظهر البحر نملؤه سفينا

• **الصحابة الذين دخلوا في الإسلام، وهم من سكان الشام.** . وفيه دلالة على أن القبائل العربية كانت تعمر بلاد الشام قبل الإسلام. . وفي كُتب تراجم الصحابة عدد من هؤلاء الصحابة نذكر منهم:

زنباع بن سلامة الجذامي: ترجم له ابن حجر في «الإصابة»، ونقل عن ابن منده أنه في عداد أهل فلسطين، له صحبة، ونقل قصة تدلُّ على أن زنباع بن سلامة كان يسكن الشام في العصر الجاهلي، وفيها أن عمر بن الخطاب خرج تاجراً في الجاهلية مع نفر من قريش، فلما وصلوا إلى فلسطين، قيل لهم: إن زنباع بن روح ابن سلامة، يعشّر مَنْ يمرُّ به للحارث بن أبي شمر الغساني. قال عمر: فعمدنا إلى ما معنا من الذهب فألقمناه ناقة لنا، حتى إذا مضينا نحرناها، وسلم لنا ذهبنا، فلما مررنا على زنباع، قال: فتشوهم، ففتشونا، فلم يجدوا معنا إلا شيئاً يسيراً، فقال: اعرضوا عليَّ إبلهم، فمرت به الناقة بعينها، قال: انحروها، فقلتُ: لأي شيء؟ قال: إن كان في بطنها ذهب وإلا فلك ناقة غيرها، وكُلْها، قال: فشقوا بطنها، فسال الذهب، قال: فأغلظ علينا في العُشر.

تميم الداري، ووفْد بني الدار من لخم: قال ابن إسحاق: وهم بنو الدار بن هانئ. . بن نمارة بن لخم الذين ساروا إلى رسول الله من الشام، وهم: تميم بن

أوس، ونُعيم بن أوس أخوه، ويزيد بن قيس، وعرفة بن مالك. . وفاكه بن النعمان، وجبلة بن مالك، وأبو هند بن برّ، وأخوه الطيب بن برّ.

وروى الذهبي في «سير الأعلام» (جـ2/ 442)، عن عكرمة قال: لما أسلم تميم قال: يا رسول الله! إنَّ الله مظهرك على الأرض كلها، فهب لي قريتي من بيت لحم، قال: «هي لك»، وكتب له بها. . وفي الخبر شاهد على أنه كان يسكن فلسطين.

• **وأبو ثعلبة الخُشَني:** روى البخاري في كتاب: الذبائح والصيد، باب: عن أبي ثَعلبة الخُشني قال: قلتُ: يا نبيَّ الله! إنّا بأرض قوم أهل كتاب، أفنأكل في آنيتهم؟ وبأرض صيد، أصيد بقوسي وبكلبي الذي ليس بمعلّم، وبكلبي المعلم، فما يصلح لي؟ قال: «أما ما ذكرت من أهل الكتاب، فإن وجدتم غيرها، فلا تأكلوا فيها، وإن لم تجدوا، فاغسلوها، وكلوا فيها، . .الحديث» قال ابن حجر في الفتح: «قوله: إنا بأرض قوم أهل كتاب» يعني: بالشام، وكان جماعة من قبائل العرب قد سكنوا الشام وتنصروا، منهم: آل غسان، وتنوخ، وبهز، وبطون من قضاعة، منهم: بنو خُشَيْن آل أبي ثعلبة. . قال: وكان إسلامه قبل خيبر، وشهد بيعة الرضوان، وتوجه إلى قومه فأسلموا.

وروى الذهبي في «سير أعلام النبلاء» (جـ2/ 569) عن أبي ثعلبة قال: أتيت النبي ﷺ، فقلتُ: يا رسول الله! اكتب لي بأرض كذا وكذا بالشام ـ لم يظهر عليها النبيُّ حينئذ ـ فقال: «ألا تسمعون ما يقول هذا؟»، فقال أبو ثعلبة: والذي نفسي بيده! لنظهرنَّ عليها، فكتب له. .

وقال الذهبي: نزل الشام ـ بعد إسلامه ـ، وقيل: سكن داريا، وقيل: قرية البلاط ـ في الغوطة، و له بها ذريّة. .

قلتُ: وفي داريا اليوم (2005م) عائلة اسمها خُشين، أو خشينة.

• **وفروة بن عمرو الجُذامي.** قال ابن إسحاق: وبعث فروة بن عمرو الجذامي إلى رسول الله رسولاً بإسلامه، وأهدى له بغلة بيضاء. وكان فروة عاملاً للروم على مَنْ يليهم من العرب، وكان منزله (معان) وما حولها من أرض

الشام، فلما بلغ الرومَ ذلك من إسلامه، طلبوه حتى أخذوه فحبسوه عندهم. . فلما أجمعت الروم لصلبه على ماءٍ يقال له: «عفراء» بفلسطين ـ من شرقيّ الأردن الآن[1] ـ قال:

بلّغ سَرَاة المسلمين بأنني ... سَلْمٌ لربّي أعظُمي ومقامي

. . ثم ضربوا عنقه، وصلبوه على ذلك الماء. يرحمه الله تعالى.

(1) حسب التقسيمات الإدارية للشام بعد الفتح إلى أجناد، كان جند فلسطين يضم القسم الجنوبي من فلسطين، والقسم الجنوبي من شرقي الأردن.

obeikandl.com